نزيه أبو السباع..

القتال والميدان والعلم والمختبر

نزيه أبو السباع.. القتال والميدان والعلم والمختبر

عبد الله مفلح

«بقميـصٍ أصفـرَ خفيـفٍ، وبنطـال قمـاشٍ بنـيّ، وحـزام اسـتنفد كلَّ إمكانيّـة شـدّه أكثـرَ ومـا زال مرتخيًـا، وشبشـب طويـل بإصبـع، وشـعر ملـيء بالشـيب، وشـبه لحية غيـر حليقـة، أتذكَّـر الأسـتاذ نزيـه، كان نحيلًا جـدًا، أسـمر طويـلًا، بوجـه مجفّـف، ولطـف لا يُحتمـل، يمكننـا رؤيـة الخجـل الطاغـي على وجهـه حيـن تتحـدّث إليـه إحـدى المعلمـات، لـم أكـن أعـرف عنـه شـيئًا سـوى أنّـه مـن المخيـم»[1]

الشهيد نزيه أبو السباع، وهو يدرّس تلاميذه مادّة العلوم في مختبر مدارس الإيمان.

أمّـا أنـا فأصنـعُ الذكـرى المشـتهاة مـع نزيـه أبـو السّـباع، الأسـتاذ النحيـف، يُخبِّـئ خلفَ أسـتاذيّته القسّـاميَّ ومفاجآتِـه، أصنعُهـا مـن تتبُّـع السِّـيَرِ واسترسـال التخيُّـلات عنـه، أحـاولُ في هـذه التذكّـراتِ أن أسـتعيدَ شـيئًا مـن صورتِـه وبهائـه، فأنـا وأمثالـي -وهـم كُثُـرٌ- نقـرأ عـن الشـهداءِ أهـلِ الفعـلِ العسـكريّ بجـلالٍ وقداسـة، نراهـم تجسـيدًا للقيـم، تفانيًـا في التخلّـي، نقـرأ عـن زمـنٍ أدركْنـا تواليَـه مُـذ كنّـا صغـارًا بلهفـةٍ وتَـوْقٍ: محمّـد عزيـز، فـؤاد الحورانـيّ، تيتـو مسـعود، قيـس عـدوان، نشـأت جبـارة، طـارق عبـد ربّـه، صـلاح شـحادة، رائـد زكارنـة، أيمـن حـلاوة، سـائد عـوّاد، جهـاد حمـادة، شـادي الطوباسـيّ، محمـد حبيشـي، عدنـان الغـول، أبـو هنّـود، عمـاد عقـل، محيـي الديـن الشـريف، نضـال فرحـات، ناهـض أبـو عـودة، نصـر جـرّار، عبـد الباسـط عـودة،

1 هكذا أتذكّر الأستاذ نزيه، عبّاد يحيى، نُشرتْ في موقع ألترا فلسطين، بتاريخ 4 أكتوبر 2016م

وقائمة الشرفِ تطول والحروفُ تَقْصُرُ وتُقْصِر.

صباح الثلاثاء 19 آذار/ مارس 2002م تقتحمُ «مجموعة الشهيد نزيه أبو السباع» معسكر تياسير الصهيونيّ، وتقتلُ قائد المعسكر. نفّذ العمليّة الشهيدان: أحمد عتيق من بلدة برقين، وصالح كميل من بلدة قباطية، كانتْ هذه العمليّةُ هديّةَ كتائب القسّام لآلِ الشهيديْنِ: خليل الغروز من مخيّم العرّوب، ولؤي الستيتي من مخيّم جنين، اللّذيْنِ استُشهِدا بعد إطلاقِ صاروخٍ على سيّارتهما، قبل تنفيذ عمليّتهما شمال رام الله.

لعلَّ تسَمِّيَ المجموعةِ باسم نزيه أبو السِّباع يشِي بوفاءٍ وفَضْلٍ له، إذ مضى على استشهاده شهرٌ واحدٌ وبضعة أيّام، جاءتْ هذه العمليّة لتقول: القسّام هنا، لا ينسى دَمَه.

يعدّ أبو السّباع الرجلَ الثاني في كتائب القسّام في منطقة جنين حين استشهاده، مساعِدًا للشهيد نصر جرّار، ونائبًا له في متابعة المجموعات العسكريّة القسّاميّة، وهو الّذي تعلَّمَ إعداد العبوات الناسفة والأحزمة وصناعة المتفجّرات والصواريخ على يد الشهيديْن أيمن حلاوة، وجاسر سمارو[2]، ولعلَّ الحدثَ الأخطَرَ الذي جعلَ الصهاينة سريعين في اغتيالِ «أبو السباع» أنّه كان المساعِد لنصر جرّار في مشروع إنتاج الصواريخ، الّذي حاولت قيادة القسّام متمثّلةً في «فريق تطوير الأسلحة» نقلَ خبرة إنتاجه إلى الضّفّة الغربيّة، وجنين تحديدًا، إذ كان المهندسان نضال فرحات وتيتو مسعود قد أنتجا صاروخ (قسّام 2) وهما مَن طرحا فكرة تصنيع الصواريخ محلّيًّا[3]، وهو تفكيرٌ لو قُدِّرَ استمرارُه ونجاحُ تطبيقه في شماليّ الضفّة الغربيّة لَكانَ سلاحًا ذا أثرٍ استراتيجيّ بعيد المدى، خاصّة في المنطقة الأقلّ عرضًا لدولة الكيان، ما يُمكِّنُ، ولو نظريًّا، من فصل شمالِها عن وسطِها وجنوبِها.

ضمَّ فريقُ تطوير الأسلحة في كتائب القسّام الشيخ صلاح شحادة، مؤسّس الجناح العسكريّ لكتائب القسّام، ومؤسّس خلية «المجاهدون الفلسطينيّون» عام 1984م الّتي يمكن عدّها البذرةَ الّتي أينعَتْ منها كتائبُ القسّام، إذ أوكلَ له الشيخُ أحمد ياسين تأسيس خلايا عسكريّة شماليّ قطاع غزّة، وأوكَل للرنتيسيّ، كذلك، تأسيسَ خلايا عسكريّة جنوبي قطاع غزّة؛ وضمّ الفريق كذلك عدنان الغول، كبير المهندسين العسكريّين، الذي حصَّلَ خبرتَه الواسعة في صناعة الصواريخ والمتفجّرات حين كان منفيًّا إلى مصر الّتي رحّلتْه بدورها إلى سورية؛ وبجانب شحادة والغول كان من عناصر الفريق الشهيد يحيى عيّاش، وياسر طه، وزاهر نصّار الذي كان يتعجّبُ صلاحُ شحادة من جمعه الأموال ومن أين يأتي بها، فيجيبُه: ما دمتَ تعمل لله فلن يُضيِّعَك.

اليوم، تُعيدُ جنين، استرداد المسيرةِ، ونحْتَ صخرِ الفعلِ المقاوم، فـ «كتيبة العيّاش»[4]

2 درب الأشواك، سليم حجّة، ص127

3 في ضيافة البندقيّة، الجزء الأوّل، قناة الجزيرة، الدقيقة: 30:00

4 ظهرت عددٌ من التسجيلات المرئية تظهر إطلاق هذا التشكيل الذي ينسب نفسه لكتائب القسام في جنين، صواريخ على مستوطنات مقامة على أراضي جنين، ورغم عدم وجود تبنٍ رسمي من القسام أو حماس للإطلاق، إلا أن نائب رئيس المكتب السياسي للحركة صالح العاروري أشار إليه في أحد لقاءاته عبر قناة الأقصى في 2023/7/3، إلى أنه جرى «إطلاق صواريخ قسام «1» في جنينَ قبل أيّام».

تستعيدُ الفكرةَ وتستثمرُ حالة المخيّمِ، ليتجدّد ثأرُ المسيرةِ للدماء الزكيّة الطاهرة، ولعلّ أهمَّ ما يُكتَسَبُ باعتمادِ الصواريخِ سلاحًا استراتيجيًّا: أنّها غيَّبَتْ وتُغيِّبُ فكرةَ الأمنِ والهدوء الّتي بُنِيَ عليها الكيان الصّهيونيّ، وراكمت على مدارِ السنوات قوّةَ ردْعٍ تخصم من رصيد التفوُّقَ الجويِّ الإسرائيليِّ، فوصَلَتِ المقاومةُ الآن إلى إمكانيّة صناعة ردعِها الخاص عبر الصواريخ والذي يقابل الردع الذي يصنعه سلاح الجو الإسرائيلي، مع التنبُّه إلى أنّ الصواريخ هي التكتيك القتالي الأبرز والأكثر استخدامًا من طرف المقاومة في القطاع، خلال السنوات العشر الأخيرة، في ظلّ غيابِ الحضورِ البريّ، الذي يبدو أنّ قيادة الجيشِ لن تلجأ إليه بعد حرب 2014م، محاولةً أن تردمَ فجوة الإنجاز المتشكلة بغيابه من خلال الاستثمار في أسلحة السايبر والضربات الجوّيّة، وهو ما لا يحسمُ، وحده، حربًا.

وقد واجهت المقاومة الفلسطينيّة معيقاتٍ وصعوباتٍ تستهدفُ القدرة الصاروخيّة وتطويرَها، من ذلك: منع الاحتلال الإسرائيليّ وصول الموادّ اللازمة لعمليّة التصنيع وفرض حصارٍ مشدّدٍ على الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة، من ذلك منع كثيرٍ من موادّ التنظيف المحتوية على مركّباتٍ ذات استخدامٍ مزدوج، وكذلك منع مادّة اليوريا المستخدمة في الزراعة والتسميد، ما حدا بوحدة التصنيع العسكريّ الأولى، إلى الاستعانة بـرَوْثِ البهائم لاستخراج بعض الغازاتِ والموادّ الكيماويّة، وكذلك مادّة الكبريت المستخدمة في الزراعة. ومع استمرار إجراءات الاحتلال وتضييقاته بأشكالٍ متعددةٍ حتى يومنا، فإنه يظهرُ تطوّرٌ في القدرات التفجيريّة لعبوات مخيّم جنين، أمّا صواريخ كتيبة العيّاش فيبدو أن طريقها طويل، وحسبُها تبصيرُ الطريق للسابلة، والله يتولّى، فإنّ لله عبادًا إذا أرادوا أراد، وهي منّة اللهِ على عباده يكافئهم على عزيمة السعي حين يرى من نواياهم ما يؤهّلهم لأن يكونوا مؤمنين به واثقين بنصره.

شيء من السيرة الظاهرة.. الطاهرة

يعود نزيه أبو السباع إلى قرية الكفرين المهجَّرة، من قرى الرّوحة، جنوب شرق حيفا، وتنتسب عائلته إلى حمولة المصاروة، وُلِدَ في مخيَّم جنين عام 1972م، المخيَّم الّذي ما زال ولّادًا، والذي انخرط بكثافة، وعموم شماليّ الضّفّة الغربيّة في انتفاضة الاقصى، ما حدا ببعض الباحثين أن يعزو محدودية المشاركة التنظيميّة في هبّة القدس عام 2015م إلى إلقاء التنظيماتِ العسكريّة بكلّ ثقلِها البشريّ النوعيّ في الانتفاضة الثانية في شمالي الضّفّة الغربيّة، بحيث لم تستطِع حتّى هذه الأيّام أن ترمِّم الفَقْدَ الكبير في قواها البشريّة كمًّا ونوعًا، لا سيما في نابلس وطولكرم.[5]

5 إرث انتفاضة الأقصى، أحمد العاروريّ، نُشِر في موقع «باب الواد»

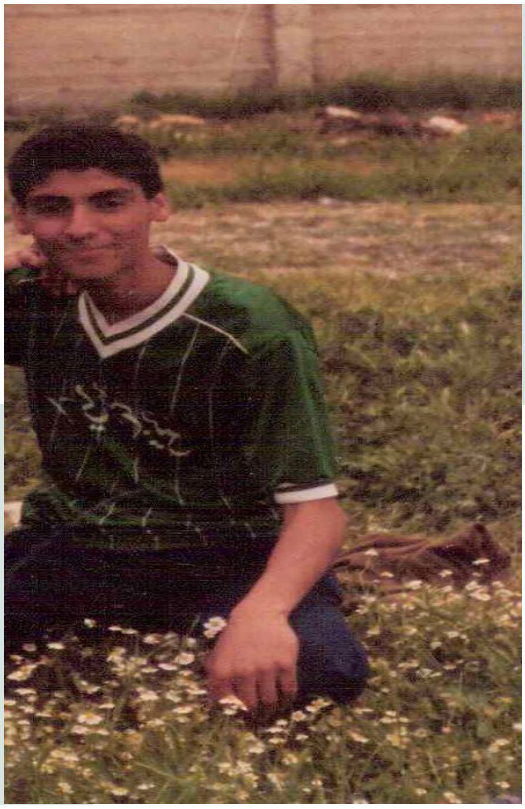

الشهيد نزيه أبو السباع وهو ابن 15 ربيعًا

التحـقَ شـهيدُنا بجامعـة القـدس، ليـدرس الهندسـة الكيميائيّـة، صـارَ أميـرًا للكتلـة الإسـلاميّة، وكان لافتًـا أنّ إمـارة الكتلـةِ الإسـلاميّة تقتـرنُ، غالبًـا، بفعـلٍ عسـكريّ على مسـتوى عـالٍ، كانـتْ إمـارةً تُختَـمُ بالـدمِ، فيهـا صـدق البدايـاتِ، مـا يجعـل منتسـبيها أمثلـةً لمَـن تلاهـم. سُـجِنَ خـلال ذلـك مرّتيـن، وعُيِّـنَ خـلال اعتقـال 1995/ 1996 سـكرتيرًا للجنـة الثقافيّـة في سـجن مجـدّو، لعلاقته مـع الكتـاب والمطالعـة. تُـروى مواقـف تمـرُّ مـرَّ النسـيمِ عليـكَ، مثـلاً: «في ظهيـرةٍ مـا، اختلفـتُ مـع صديـق في كنيـة أحـد الشـهداء المعروفيـن، وعجـز كل المحيطيـن بنـا عـن معرفـة الإجابـة، حتّـى قـال لنـا أحدُهـم: اسـألوا نزيـه، وبعـد صـلاة ظهـرٍ في جامـع جنيـن الكبيـر كان الأسـتاذ نزيـه يلبـس شبشـبه الطويـل ذا الإصبـع ويهـمُّ بالخـروج، فداهمنـاه بالصـراخ: أسـتاذ نزيـه، أسـتاذ نزيـه..

ضَحِكَ من السؤال وألقى الإجابة دون تفكير وذهب، عرفنا يومَها أنّه خبير بالشهداء.»[6]

16 شباط 2002: ويبقى الأثر

نحـبُّ، نحـن الأحيـاءَ الذيـن انغمسـنا في الدنيـا، أن ننسـبَ الشـهداء إلينـا، أن نجعلهـم منّـا في

6 هكذا أتذكّر الأستاذ نزيه، مصدر سابق.

تراكيبنا، فنقول: شهيدنا، شهداؤنا، كأنّنا نريد أن نستر تقصيرنا ونمتزج بمثالنا: رحلَ شهيدُنا نزيه محمود مسعود أبو السباع، بعد أن نثرَ علمَه في مدارس الإيمان بجنين يدرّس مادّة العلوم، وفي طريق عودته إلى بيته، في الشارع الفرعيّ بين مسجد النور والحسبة، مرّ بجانب سيّارة ميتسوبيشي مركونة جانب الطريق، انفجرت فيه، كانت طائرة عسكرية إسرائيلية تحلّق في المكان، زعموا أنّها فعّلت القنبلة عن بعد. قال شارون بعدها: «لقد تخلّصنا من قنبلة موقوتة»، وهو نفسُه الذي قال: «فدائيّ ميّت خيرٌ من فدائيّ حيٍّ»، استُشهِدَ كثيرون من أبناء القسّام والمقاومة بمثلِ هذا الاغتيال، منهم: إبراهيم بني عودة، أيمن حلاوة، فوّاز بدران.

صعد شهيدُنا صائمًا في الرابع من ذي الحجّة، يتجهّزُ لزفافه، معلّمًا للناس الخيرَ من طرقه كلّها، وما زال طلابه يترحّمون عليه، كان مُعلّمًا وكفى، والعلم طرقه واسعة، لكنْ، أن تجد مَن يعلّمك أنّ العلمَ الحقيقيّ الشريف هو الذي يقود إلى الدم، وإلى وضوح الطريق فذلك علمٌ ينفع صاحبَه يوم القيامة.

في اليوم التالي، على الإذاعة المدرسيّة، كان الطفل مؤمن عيادية يلقي شعرًا يقول فيه:

نزيهُ، ستبكي عليك العيون :: وتسأل عنك دموع المئين

وإن جفَّ دمعي سيبكي الغمام :: يُرَصِّعُ قبرَك بالياسمين

وأمّا صلاح جرار الشاعر الذي زامَلَ الشهيدَ نزيه أبو السباع، فقد قال في ذكرى استشهاده الأولى:

هو ذا نزيهُ ثمَّ قيسُ بعده :: وأبو صهيبٍ قد لقوا الموعودا

هو ذا نزيهُ والصحابُ جميعُهم :: أفلا ترى عقدًا أغرَّ نضيدًا

حبّاتُه الشهداءُ في ساح الوغى :: والحمزةُ المغوارُ زانَ الجيدا

فلئن بكتْ عيني نزيهًا إنّها :: تبكي الوفاءَ وفعلَه المحمودا

تبكي شبابًا كالرياضِ نضارةً :: تبكي أريجًا منعشًا وورودًا

تبكي محيّا أشرقَتْ قسَماتُه :: كشروقِ إيمانٍ يظلُّ سجودًا

تبكي رفيقًا في أداء مهمّةٍ :: في معهد الإيمانِ يقطر جودًا

تبكي حبيبًا راح يُسرِعُ خطوَه :: كيما نرى عرسًا له مشهودًا

Islamic Block at Al-Quds University

الكتلة الإسلامية - جامعة القدس

Shahid Card

بطاقة شهيد

اسم الشهيد : نزيه محمود أبو السباع

الكلية : العلوم و التكنولوجيا - دائرة الكيمياء

تاريخ الاستشهاد : 16 - 2 - 2002 مـ

كيفية الاستشهاد : إغتيال بسيارة مفخخة